الومضة البَصَرِيَّة أو ومضةُ الصورةِ

د. جمال الجزيري

الومضة البصرية نوع من أنواع الومضة القصصية تعتمد على الصورة باعتبارها وحدة البناء الأساسية في حركة السرد والانتقال من خطوة سردية لأخرى بتغير الصوة تلو الصورة. ويتم فيها استعمال السرد المشهدي الذي يتم استعماله أيضا في الومضة المشهدية التي تناولناها في باب مستقل من أبواب هذا المعجم المصغَّر. ويتم فيها توظيف الصورة في سرد حدث تصاعدي أو تجاوري: تصاعدي لأن العبارات الاسمية التي يتم استعمالها عوضا عن الأفعال في الومضة تكون ذات دلالات تراكمية وكأن الراوي يمسك بكاميرا متحركة ويلتقط صورا متعاقبة تشكل حدثا متناميا؛ وتجاورية لأن الراوي يقوم بتوظيف تقنيات السرد المستعملة في الفنون التشكيلية والفوتوغرافية والسينمائية التي تعتمد على التحرك في المكان بوصفه أداة سردية وليس التحرك في الزمان كما في فنون السرد القولية كالقصة والرواية والملحمة. وتتوقف جودة هذا النوع من الومضات على التقاط الصورة المعبرة والدالة ومراكمة الصور وراء بعضها البعض بحيث يشكل مجموعها فسيفساء سردية تبرز زوايا منتقاه لعدسة تستطيع السرد ببراعة دون اللجوء للأفعال الدالة على الحركة. وفي تعليق على ومضة من هذا النوع، لفت الأستاذ عبد الحميد محمد نظرنا إلى تقنية الكتابة التلغرافية والكلمات المتقاطعة بوصفهما عنصرين

أو أسلوبين حاضرين بقوة في مثل هذا النوع من القصص. وبناء على خبرتي الشخصية في كتابة هذا النوع من الومضات القصصية منذ سنوات وكما لاحظته عند بعض أعضاء مجموعة سنا الومضة القصصية مثل عادل بكر وحسونة العزابي وهيفاء حماد، أظن أن هذا الأسلوب يستطيع أن يثبت حضوره وفاعليته في تطوير الومضة القصصية والقصة القصيرة جدا أيضا، لأن فكرة السرد بالصورة موجودة في جوانب كثيرة من حياتنا. وذكرتُ منها في فصل من رسالتي للدكتوراه عام 2002 وكان عن القصص المشهدية أمثلة من قبيل الصور على جدران المعابد الفرعونية والسرد في اللوحات الفنية والسرد السينمائي. ويمكنني أن أضيف لهم الآن السرد بالصور الفوتوغرافية التي يتم التقاطها من زاوية مميزة في الصورة الواحدة التي تحكي قصة كاملة أو في مجموعة الصور المتتابعة التي يحل تتابعها المكاني محل السرد القولي الذي يمثل حركة في الزمان. وبما أن مثل هذا النوع من الومضات القصصية يقوم على الأسماء والصفات وما يلزم أحيانا من حروف جر، لابد أن يتم تمثيل النص بصريا على السطر بشكل يجعله مقسَّما إلى وحدات سردية لتخفيف الإجهاد عن ذهن المتلقي الذي قد يبذل مجهودا ذهنيا كبيرا للربط بين الأسماء والصفات المنفصلة عن بعضها البعض، كأن نضع الفاصلة بين العناصر التي تنتمي للوحدة السردية الواحدة ونضع النقطة بين الوحدات المتتابعة. ومن الأفضل أيضا كبديل عن الخيار الأول أن يتم استعمال

تراكيب لغوية أخرى غير الاسم المجرد من الأوصاف، كبنية المضاف والمضاف إليه أو الاسم وبعده جار ومجرور أو الصفة والموصوف التي تسمح لنا بتكوين علاقات بين الكلمات المتناثرة هنا، لأن استقلال كل اسم بنفسه كوحدة سردية منفصلة يُرهق ذاكرة القارئ، خاصة وأن الومضة قد يصل طولها إلى 15 كلمة كما هو معمول به الآن في مجموعة سنا الومضة القصصية، وأبدى القاص الأردني المتميز محمود الرجبي ملاحظة متميزة تصب في هذا السياق على نفس الومضة التي علَّق عليها الأستاذ عبد الحميد وهي ومضة "ضياع" لهيفاء حماد، ويقول في هذه الملاحظة: "المشكلة في هذا النوع من الومضات أن الرابط الخفي بين الكلمات قد يضيع بسرعة كلما زاد عدد الكلمات لذا أرى ألا يتجاوز عدد الكلمات الخمس أو الست كلمات"، وهذا حلٌّ آخر يمكن أن يضاف للاقتراح الذي اقترحته أعلاه بتقسيم الومضة إلى وحدات سردية، فالكلمات المفردة التي لا تدخل في تركيبات لغوية تربط بينهما ستكون بمثابة عوالم منفصلة وإذا زاد عددها سيفقد القارئ قدرته على التركيز وعلى الربط بين المفردات التي تمثِّل عناصر الومضة البصرية أو الصورة السردية. وربما كان لعنوان ومضة هيفاء حماد المذكورة دور في هذا الشتات اللفظي – إذا جاز لنا استعمال هذا التعبير – الذي يوحي بصريا بالضياع المذكور في العنوان.